محمد ﷺ

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾

(الضحى الآيات ٦-٨)

* * *

عوَّضَه الله فى يُتْمه خيرًا مما فقده بفقْد أبيه ، فقد مكَّن له أن يعيش فى ظلال جده وعمه ، وحضانة أمه ، ثم استوى غلامًا فتيا ، يتاجر ، وعرف الناس ، وكسبَ ، وتزوج وخلَّف وأصبح يُؤْوِى اليتامى والمساكين .

وعوَّضه عِلمًا وتجربة وخُلُقًا ، وربَّاه فأحسن تربيته ، ومنحه نُبوَّة ورسالة وشريعة ، وختامًا للأنبياء والمرسَلين ، وجعله أفضلَ الخلْق أجمعين .

وعوَّضه فى فقره ، فأغناه عن الناس ، وبارك له فى تجارته ، وأغناه بعزَّة نفسه ، وحسْن سُمعته ، وثقةِ الناس فيه ، وشُمول دينه .

* * *

وحين كبر وبلغ السادسة من عمره ، أخذته أمه ، وسافرت به من مكة إلى المدينة ، لزيارة بنى النجار ، أخوال أبيه ، فهؤلاء قومٌ من رائحة أبيه الذى مات ولم يره ، وزورته البيت الذى مات فيه ، والقبر الذى دفن فيه . وأقامت فى ضيافتهم ما اقامت ، ولقيت من إكرامهم مالقيت .

وهى راجعة إلى مكة مرضت فى الطريق ، فماتت ، ودفنوها فى نزلةٍ اسمها الأبواء .

فلما دفنوها ، وَرَدَمُوا عليها بالتراب ، وانصرف الناس ، لم يبقَ واقفًا على هذا القبر ، فى الخلاء ، وفى لهيب الشمس ، وحريق الصحراءِ ، إلا صبى صغير ، سنُّه ست سنوات .

هو ولدها محمد ، وقف يبلِّل هذا القبر بدموعه ، ويرثى أمه التى كانت تعوِّضه عن أبيه ، فإذا هى بموتها ، تخلِّفُه من غير أمه وأبيه .

وتلفَّت حواليه ، فلم يجد إلا جاريته أم أيمن .

فمسح عينيه ، واسترجع نفسه ، واستجمع شجاعته ، وقال لها :

الآن يا أم أيمن ، قد حُرِمْتُ الأبوين ، وتعرَّيت من الظِّلَّين ، وأنا بين البلدين ، فإلى أين أذهب يا أم أيمن ؟

فتحدرت حبَّات دموعها ، وشَرَقتْ بريقها ، وتَحَشْرَجَ صوتها ، وهى تقول : إلى أين يا محمد ؟ إلى أبيك عبد المطلب ، سيد قريش ، فى ظله وحِجْره تَعيش . وتَمْتَم الصبى ، وقال : أبى عبد المطلب ؟ أبى . لا تقولى أبى ! فإن أبى قد مات ، واليوم مرة ثانية مات .

قولى يا أم أيمن: جدى ، والجدُّ أبٌ أعْلى ، وبينى وبينه ميدان يسْرح فيه أعمامى ، وأبناءُ أعمامى ، وما أنا إلا واحدٌ من هؤلاءِ وهؤلاءِ !

واستظلَّ فى كنفِ جده عبد المطلب سنتين .

* * *

فلما مات عبد المطلب ، وقف محمدٌ على قبره مع الواقفين .

فلما انصرفوا ، لم يبق إلا الغلامُ اليتيم ، يبكيه ويرثيه ، ويقطُر حبات دموعه عليه ، ويقول :

لقد كنت أبى بعد أبى ، وكنت مُفَرِّج كربى ، وماسحَ رأسى ، ودافع بأسى وباعث أنسى ، أفيُجدى بعدَك التأسِّى !

والتفتَ إلى أم أيمن من ورائه ، وسألها :

وإلى أين يا أمَّ أيمن ؟

وكفكفتْ أم أيمن من دموعها ، ومستْ كَتِفَه بيدها ، وقالت :

إلى أين ؟ إلى أبى طالبٍ يا محمد ؟

وتَمْتَم الغلام ، ثم قال :

أبى ؟ أبى أبو طالب ؟ يا أم أيمن . لقد مات الآباء ! واليوم مات أبو الآباء ! قولى : عمِّى أبو طالب : وعمُّى أبو طالب ، سيِّدُ الرجال ، وكريم الخصال ، وعليه هيْبَةٌ وجلال ، ولكنَّه يا أم أيمن : قليل المال وكثير العيال ، أفَتُريدينَ يا أمَّ أيْمن ، أن أزيده حِملاً على أحمال !! وما أرْضَى أنْ أعيش عِبْئًا على الرجال !

* * *

وبدأ محمدٌ يحمل نفسه ، ويعمل لعيشه ، ويرعى غنم الناس ، ليأخذ آخر النهار أجْرَه ، ويرْنُو إلى التجارة بعينه ، ويتعلق بأبى طالب فى سِفْرةٍ من سفراته إلى الشام ، فيتعرَّف الأسواق ، ويتمرَّس بالاتجار ، ويسير كتِفًا بكتفٍ مع الناس .

وعلى قمة صخرة هناك بالشام ، يقيم الراهب بحيرى ، يطل على الغادين والرائحين ، يتعبَّد ويقرأ فى كتب الأولين ، ويفتح إنجيل برنابا ، فيتلو ما قال عيسى ، ومبشرًا برسولٍ يأتى من بعدى اسمهُ أحمد ، إذا سار ظلَّلته سُحُب السماء .

ويرى بحيرى ، وهو يطل من صومعته ، قافلةً آتيةً من بلاد العرب ، تتبعها غمَامة فى السماء ، وما كان مألوفا فى القوافل ، أن تكرمها السماءُ .

فدعا هؤلاء القوم إلى صومعته ، وما كان من عادته أن يدعوَ الناس ، وتفرس فيهم ، حتى جلس إلى الشاب محمد يسأله ، بين ما يرى فيه من ملامح وشواهد ، وبين ما قرأ من أوصاف وعلامات فى الكتاب .

ثم مال على عمه أبى طالب ، وهمس فى أذنه : يا أبا طالب ، خذْ ابنَ أخيك ، واضمُمْه إليك ، واحذَرْ عليه ، وإنى لأرجو أن يكون ذا شأن عظيم .

* * *

وتسامع الناس بأمانته ، والبركة التى تحلُّ فى تجارته ، وتمنَّى كثيرٌ من ذوى التجارات ، أن يكون محمدٌ أمينه وسفيره .

ودَعته خديجة بنت خُوَيلد ، الغنية الجميلة الجليلة ، ليتاجر فى مالها ،وأُرسلت معه فى خدمته غلامها ، فربح لها ، وربح منها احترامَها وإعجابها ، فعرضتْ عليه نفسَها ،وتزوَّجها ، ولوْ أنه كان أصغر سنًّا منها ، فكانت الزوجة والحبيبة والرفيقة ، والسند فى الشدة والمفرِّجة للكربة ، والمصدِّقة يوم كذَّب الناس .

وكانت أول سيدة تدخل الجنة ، وكانت أمَّ أولاده ، وما كان له من أخرى غير إبراهيم ، وكانت أعزَّ نسائه عليه ، وحزِن لموتها حتى بدا حُزْنه وهُزاله !

* * *

دخل الكعبة يوما على القوم ،وقد تواعدوا على الحرب ، وغمسوا أيديهم فى الدم ،فقال علَام يا قوم ؟ فقالوا : من أجل هذا الحجر الأسود فهو من تراث نبى الله إبراهيم ، من استأثر برفعه إلى مكانه ، كان شرفُه فوق القبائل أجمعين .

فبسط محمدٌ ردائه ، ووضع الحجر فيه ، فأمسكوا بأطراف الرداءِ ورفعوه ، وكلُّهم اشتركوا فيه وأخذه بيده فبناه فى موضعه ، وما استأثر به أحد ، ولا تخلف أحد ، وعادت السيوف إلى الأغماد ، وانزاح شبَح الحرب ، وشاعَ السلام والأمان !

* * *

وعاش عزيز النفس ، وادِعَ الخُلُق ، طيب السُّمعة ، نموذج المثال ، حتى بلغ الأربعين من عمره ، فاكتمل وعيُه ، ونضج رأيُه ، واستوى خلقه وأدبُه ،وتسامَى عن كل ما يعيب الرجال ، فقد صنعه الله على عينه : وأعدَّه لرسالته .

* * *

والرسالة ، مُهِمَّة خطيرة ، مهمة تَغْيير دين بدين ، وخلْق عقيدةٍ تمحو عقيدة . والدِّين لصيق بالروح ، وميراث الآباء ، وتركة الأبناء ، ومزاج فى الدم ، وتقديس للأصنام والأوثان ، فهى الآلهة ، وهى المعبودة المرجوَّة .

وكل كلام يا محمدُ مقبول ، إلا أن تجترئ على الدِّين أو تسفه الأحلام ، أو تعيب على الآلهة ، فدون ذلك الخُصومة واللَّدَد ، والقطيعة والحرب .

يا محمد ، إن كنت تريد غنى أغنيناك ، أو سيادةً سوَّدناك فأمَّا الدينُ ، فلا .

* * *

واشتجر الدينان ،وبَرَزَتْ بينهما نظريةُ تنازُع البقاءِ ، وبقاءُ الأصلح . وصحَّت النظرية وصدَقَتْ ، وتنازَعَ ، وثبتَ الحق ، وزَهَق الباطل . وصحَّ خَبَرُ النبى عليه الصلاة والسلام : لا يجتمع فى الجزيرة دينان .

* * *

وكان أولَ من أسلم ، وأول من لقى الخبر ، خديجةُ زوجته .

وسألت فى ذلك قريبَها ، ورقة بن نوفل ، وعنده علمٌ من الكتاب فقرَّرَ صِدقه ، وتمنَّى أن يطول به العمر ، حتى يشهد بَعْثه .

وتنبَّأ له بما سيلقاه من شدةٍ وعَنَتٍ فى دعوته ، وأنَّ قومه سيُخْرِجونه من بلده ، واستعظم ذلك النبى ،وقال : أوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ ! ؟

وأسلم صديقه أبو بكر ، وابن عمه علىُّ بن أبى طالب ، وزيدُ بن حارثة ، أبو أسامة ، وكانوا قِلَّة ، وكانت الدعوة سِرِّية .

وهكذا شأن الدَّعوات ،تبدأ سرِّيةً ، فتُعْرضُ الفِكرة وتُمحَّص ، وتُربَّى فى الندوة ، وتنمو فى حِجْر الإقناع ، حتى إذا ما أصبحت عقيدةً ،ورسخت فى الأذهان ، وتمكَّنتْ من القلوب ، تملَّكتْ نواصى المعتقدين .

* * *

والنفوسُ أقوى مِنَ الأجساد ، فلا الجسدُ يَثنى النَّفسَ عن الاعتقاد ، ولا هو يستطيع أنْ يسوقَها إلى غير ما اعتقدت .

وإذا كانت النفوس كبارًا تعبتْ فى مُرادها الأجسام

فلا يُؤثِّر تعذيبُ الجسم وأذَاه فى مَجْرى النفس ، ولا يَفُكُّ ما عقدت من عزم .

* * *

ذلك الذى أثر فى عمر بن الخطاب يوم أسلم ، ويوم جَهَر بإسلامه .

فقد كان أعنفَ الغاضبين على محمد وأصحابه ، ومِنْ خشيته ، كان المسلمون يتوارَوْن فى ندوتهم السرية ، يعقدونها فى دار الأرقم ، ويُوصدون عليهم الباب مخافة أن يقتحم عليهم مُقْتحم .

وهمس هامس فى أذن عمر ، : إنَّ أختك صَبَأتْ ، واعتنقت الدين الجديد ، فغضب وثار ، ودق بابها ، وخدش وجهها ، وأسال دمها ، وضرب زوجها ، واختفى خبَّابُ مُقْرِئها ، وهمَّ أن يأخذ الصحيفة من يدها .

ولكنها صرخت فى وجهه ، وقالت : هذا كلام الله ، لا يمسُّه إلا المطهرون ، فادخلْ إن شئتَ يا عمر وتطهَّر ، وإذ ذاك أسمعك ما كنا نقرأ .

أليس ذلك من توفيق الله ، أن تَشُنَّ المرأةُ على عمر ، حرب أعصابٍ فَفَلَّتْ من حِدَّته ، وأطفأت من غضبه ، وليَّنت جماحه ، بالدم السائل من وجْهها ، وبالصرخة فى وجهه ، والضَّن عليه أن يلمس الصحيفة قبل أن يتطهر ، وبالتطهر بالماءِ وللماء تبريد !

ويا تُرى ماذا حدثته نفسه فى كل ذلك ، لقد أنزل الله السكينة على قلبه وروحه حين أمسك الصحيفة وقرأ فى سورة طه

﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾

(طه الآيتان ١٤-١٥)

ناقش عمرُ الرأى ،ومَحَّصه ،واعتقده ، فتملكتهُ العقيدة ، فسخَّرت جسده ، فاندفع إلى دار الأرقم ، ودَخَلَ وأسلم .

* * *

وفَعَلَت العقيدةُ فِعْلها فى أبى بكر ،فأنفق كلَّ ماله ، وما خاف الفقر على عياله ، وفعلت العقيدة فى عثمان ، فهانت عليه كل تجارته وثروته .

وفى علىٍّ بن أبى طالب ، فوضع نفسه عرضةً للقتْل ليلة الهجرة ، فكان أول فدائى فى الإسلام ، وفعلت العقيدة فِعلها فى بلالٍ ، فأشعلتْ قلبه ، وأطلقت لسانه يقول : أحدٌ أحد .

* * *

وفعلت العقيدة فعلها فى النَّبى ، فما ألْقى بالا لوعيدٍ ولا تهديد ، ولا نظر إلى إغراءٍ ،ولا غَرَّة يوما ثناء .

وعن العقيدة صدرت كلُّ أقواله المتحدِّية ، يوم قال : لو وضعوا الشمس فى يمينى .والقمر فى شمالى لم أترك هذا الأمر ، حتى يُظهرهُ الله ، أو أهلك دونه .

* * *

وبالعقيدة جابَهَ دولة الشرك بأتباعه الضُّعاف النِّحاف من المؤمنين . وبها تسامى عن أن يأبه لامرأة أبى لهب ، تُلْقى فى طريقه الشَّوك والأذى .

وترفع عن الوَقح عُقْبة بن أبى مِعيط ، يوم أمسك بخناقه حتى كاد يقتله .

وما استفزَّه الغضب يوم ألقوا عليه كَرِش الذبيحة القذِر وهو ساجد فى الصلاة .

* * *

وبِحَمَاسِ العقيدة ، خرج هو وأبو بكر بالليل ، من وجه المتآمرين ، فَارَّيْنَ بدينهما إلى المدينة ،لا يباليان بالفُرسان المحيطين بالباب ، ولا المتابعين فى الطريق ، ولا بالكفار جميعًا ، وهم منتشرون فى الطرقات يطلبون دمه .

* * *

ذلك فعل العقيدة ، وذلك أثرها .

والفرق بين إنسان وإنسان وجرىء وجبان ، وصالح وشيطان ، وكفر وإيمان ، أنَّ هؤلاء اعتقدوا وأولئك لم يعتقدوا . فكان لهؤلاء مَبْدأ ، وبقى الآخرون مخلخلين مذبذبين .

* * *

وبالثقة الواثقة ،والاعتقاد الراسخ ، لم يتورَّع محمدٌ ، أن يُصْبح فيحْكى للناس ، أنه رحل

إلى الشام ،ولَقِيَ الأنبياء فى المسجد الأقصى وصلَّى بهم إمامًا لهم ،وأنه عاد إلى مكة فى نفس الليلة !

* * *

وما من شك ، فى أن هذه الرحلة ، وهذا الإسراء بالليل ، والعودة فى نفس الليلة ، كان ذلك مبعثَ قولٍ وإنكار ، وشكٍ وتفكه وتندُّر من الجاحدين المنكرين .

فرحلةٌ طولها شهر ، والرجعة منها فى شهر ، تتمُّ فى ليلة وبعض ليلة !

وعجبُها أن تكون بروحه وجسده ، وقد تحدَّوْهُ وسألوه عن معالم الطريق ، وعن الغادين والرائحين ، وأين تُجَّارُهم وتجاراتهم فى الطريق ، ومن الراكبُ ومن الحادى ؟

فأجاب ، ووصف ، وتحدَّى

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾

(النجم الآيتان ٣/٤)

وآمن المعتقدون ، وأنكر المكابرون .

* * *

حتى لقد اختلف فيها المسلمون ، فقد قال الأكثرون ، إنها رحلةٌ جسدية ، بروحه وجسمه ، وقال آخرون : كانت بالروح ، والروح ترى وتصِفُ ، سواءٌ أكانت فى جسمها أم تجرَّدتْ منه .

وقال ناس : إنها كانت بالرؤيا ، ورؤيا الأنبياء ، إملاء من الواقع والحقيقة .

وقالت عائشة : إنَّ الإسراءَ كان من بيتى ، وقالت أمُّ هانى : إن الإسراءَ كان من بيتى ، ولم تفقد إحداهما جسد رسول الله ليلة الإسراء .

* * *

وجزى الله العلم خيرًا عنا وعن رسول الله ، فقد كشف العلم عن الأثير فى الجو ، وعن مَوْجات الصوت ، وسمعنا المتحدث فى أقصى الأرض بجهاز الاستقبال ورأينا الخطباءَ من أمريكا بجهاز التليفزيون .

* * *

ولعل القوم الذين كذبوا محمدًا ، لو كان انكشف لهم من سرِّ الكون بقدر ما انكشف لنا ، ما كانوا كذَّبوه ، ولا كابروه ،ولعدلوا عن جحودهم بالإسراء والمعراج .

* * *

وعاش محمد دهرًا ، سعيدًا بزوجته خديجة ، فلما ماتت حزن عليها أعمق الحزن ولو كانت زوجةً وزوجاتٌ غيرها ، ما ذهب حزنه عليها .

وما الحب إلا للحبيب الأول .

حتى إنه لما استأنف الحياة الزوجية بعدها ، استأنفها بفتاة صغيرة غريرة ، فى سن الحادية عشرة أو تزيد ، عائشة بنت صديقه أبى بكر . وتزوج حَفْصَة بنت صاحبه عمر ، وتزوج جويرية بنت الحارث ليؤلف قبيلة بنى المصطلق ، وتزوج زينب بنت جحش ، وهند ، وصفية ، وميمونة .

ولكل واحدة من هؤلاء فى زواجها بالنبى قصة ، وما أنْسَتْه واحدة منهن خديجة .

* * *

وكانت عائشة بنت أبى بكر تَغَارُ على النبى أشدَّ الغَيْرَة ، حتى من ذكر خديجة ، التى لم ترها ، وكانت تقول فيها ، كلما سَمِعتْ النبى يمجد ذكرها : « ما كانت إلا عجوزًا حمراء الشدقين » .

وكان النبى يقول فيها : ما لها ! صدَّقتنى يوم كذَّب الناس ، وواستنى يوم خَذَل الناس ، وتاجرْت بمالها ، وأنا أفقر الناس .

* * *

وكانت عائشة بنت أبى بكر ، تَغَارُ من كل امرأة ، فغارت من جُوَيْرية بنت الحارث ، والحارث سيد بنى المصطلق ، وقبائل بنى المصطلق كثير عددهم ، أشداءُ فى عنادهم ، وحربهم ، وحاربوا النبى ،وأدال الله له النصر عليهم فغلبهم ووقع ناس كثيرون منهم أسارى فى يد المسلمين .

وكانت جوَيرية إحدى الأسيرات .

ووزَّع النبى الأسارى والأسيرات على المحاربين والفرسان مَن المسلمين بالقرعة ، فأصابت قرعة جوَيرية بنت الحارث ثابت بن قيس بن الشماس .

فلما كانت منه وجهًا لوجه ، تأبَّتْ عليه ، وكاتبته على مبلغ من المال ، ليُعْتقها به ولا تتزوجه .فرضى ، وانتظر حتى تعود إليه بالمال .

فإلى من تذهب وتستعين على التَّحرر بالمال .

ولم تر أمامها إلا أن تطرق باب النبى ، صلى الله عليه وسلم .

فطرقت الباب ، ففتحت عائشة ،فوجمت لمرآها ، لمرأى فتاة جميلة مليحة قالت عائشةُ تروى حكايتها : فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتى ، حتى كرهتُها ، وعَرَفتُ أن رسول الله ، سيرى منها ما رأيت .

ودخلت عليه ، فقالت : يا رسول الله ، أنا جُوَيْرية بنت الحارث سيد قومه ، وقد أصابنى من البلاء ما لم يخف عليك ،فوقعت فى السهم لثابت بن الشماس ، فكاتبته وجئتك أستعينك على كتابتى !

قال : فهل لك فى خير من ذلك ؟

قالت : وما هو يا رسول الله ؟

قال : أقضى عنك كتابتك ، وأتزوجك .

قالت : نعم يا رسول الله .

قال : قد فَعلت .

وخرج الخبر إلى الناس ، أن بنى المصطلق ، صاروا أصهارًا لرسول الله . فأعتق كلُّ مسلم أسيرهُ أو أسيرته ، فأعتق الله أسرى بنى المصطلق . وما إن بلغ الخبر ،حتى أتت قبائل بنى المصطلق إلى النبى مسلمين .

* * *

بل لقداشتدت غيرتها على رسول الله يوم قال علىٌّ بن أبى طالب : يا رسول الله ،لا تحزن ، ففى النساء غيرها كثير .

وطوت هذه الكلمة لعلى بن أبى طالب ، بين طيَّات قلبها أربعين سنة ، ثم خرجت لحربه فى موقعة الجمل .

* * *

كان ذلك فى ليلة الإفك ، يوم تقوَّل الناس عليها مؤتفكين .

كان ذلك يوم أن خرج النبى لغزوةٍ من الغزواتِ ، وكانت عائشةُ معه فى الغزو ، فلما غزوا ورجعوا ، وطال على القوم السفر ، وانتصف الليل ، أذِنَ النبى للجيش أن يحطوا رحالهم ، ليستروِحوا ويستجموا ويستريحوا .

وكانت عائشة فى هوْدَجِها ، فأنزل الموكلون بها الهوْدج وأبعدوا فراحت هى إلى بعيد ،

تقضى حاجتها ، وهى جالسةٌ هناك ،أخذت تعبث بعِقْدها فانفرط ، وانتثرت حبَّاتُه ، فانشغلتْ فى جمعها ، وقضت مدةً طويلة .

وكان النبى قد أذِنَ بالرحيل ، فرفع الحرَّاس هوْدَجها على الجمل وهم يظنون أنها فيه ، فهى صغيرة ، خفيفة الشحم واللحم ، ولا يُحَسُّ وزنها .

وسار الجيش ، وخلَّفوها ، فلما عادتْ لم تجدْ إلا نفسها ، فَقَعَدتْ وطوَتْ نفسَها على نفسِها ، والتفَّت بردائها ،تنتظر قضاءَ الله فيها .

وكان يحرس مؤخرَّة الجيش .الفارس صفوان – يسير بعد الجيش بقدر ساعة مَسير ، فلما وصل ، دار فى المكان ،لعلَّ أحدًا نسى درعه أو سلاحه .

فلم يجد إلاَّ عائشة ،فسألها ، فلم ترد ، فنزل عن جواده ، فركبت ، وأمسك باللجام ، وسار بها حتى دخل المدينة ،فى ضحوة النهار .

وكان ذلك الحادث ، فرصة ذهبية للكافرين وللمنافقين ، يتقوَّلون فيها ، ويأفِكُون على عائشة زوجة النبى ، وبنت صاحبه أبى بكر ،- وهى شابَّة جميلة .

ما أخَّرها ؟ ومع مَنْ وصَلَت ؟ وما صَفْوان ؟

وما مِن شك فى أن وقْع ذلك كان أليمًا على نفس النبى ؟

واستشار اثنين من خاصته ،وأمَسُّ الناس به وأسْترهم عليه ، علىُّ بنَ أبى طالب ، وأسامة بن زَيد ، وكان أسامة منه بمنزلة الولد .

فأما أسامة ، فمدح وأثنى وبرَّأ ونفى الشك والشبهة .

وأما علىُّ بن أبى طالب ، فقد تأثَّر لمظهر النبى ، وكَمدِه وحُزنه وهُزاله . وأحبَّ أن يخفف الوطأة على ابن عمه رسول الله ، فقال :

يا رسول الله ، لا تحزنْ ففى النساء غيرها كثير . واسأل الجارية تجبْك .

واستدعى رسول الله جاريتها بُرَيْرَة .

وقبل أن تشهد ، قام إليها علىٌّ فضربها ضربًا شديدًا ، وهو يقول لها اصْدُقِي رسول الله . قالت الجارية بُريرة : والله ما أعلم إلا خيرًا وما كنتُ أعِيب على عائشة شيئًا إلا أنى كنت أعجِنُ العجين ، فآمرها أن تحفظه ، فتنام عنه ، فتأتى الغنم ، فتأكله .

* * *

وحفِظَتْ عائشة ذلك لعلىّ ، وبعد أربعين سنة ، خرجت لحربه .

* * *

ونزل القرآن فى سورة النور ، مُعْلِنًا براءتها ، وبراءةَ صفوان معها .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾

(النور الآية ١١)

* * *

إذَنْ ، فلم يكن النبى مِزواجًا ، إلا لرَبْطِ صديق كأبى بكر وعمر ، وإلا لربط قبيلةٍ وتوريطها ، كقبائل بنى المصطلق ، أو لتعويضِ أرْمَلةٍ انقطعتْ واستشهد عائلُها وزوجُها فى الحرب .

أو كان ذلك لتَشريع يدفع الْحَرَجَ عن المسلمين ، يوم أن كانوا يتحرجون من التزوج بزوجات أدعيائهم .

* * *

وإلا ففيم قضى النبى ربيعَ العُمْر إلى خديجَة وَحْدَها ، لم يتّسعْ قلبُه لغيرها ؟

* * *